العرب
الإثنين 2021/11/15
السنة 44 العدد 12241

المعارض العربية للكتاب.. لنتمثّل تقاليد عكاظ والمربد على الأقل

لا يمكن الاستغناء عن الحضور الجسدي في معارض الكتاب

تعتبر معارض الكتب فرصة هامة لا كسوق لبيع الكتب فحسب، وإنما كتظاهرة ثقافية متنوعة الفعاليات، وهو ما ترسخ في المعارض العربية وبات ركنا أساسيا فيها، حيث يقدم كل منها برنامجا ثقافيا متكاملا. ومن ناحية أخرى فإن هذه التظاهرات تتطلب الحضور الفعلي في أغلبها، إذ لم تنجح الوسائط الرقمية في استضافة معارض الكتب.

حكيم مرزوقي
كاتب تونسي

انطلاقة معارض الكتاب هذا الموسم أو عودة بعضها بعد أن كانت تكتفي بالمنصات الرقمية على إثر انعكاسات كورونا وتداعياتها، تُعدّ بمثابة "عودة الوعي والروح" للثقافة العربية داخل محيطها الجغرافي كالشارقة والرياض والقاهرة وتونس أو خارجه كما هو الحال في دورة مالمو السويدية للكتاب العربي.

> الأهم من الوفاء لإقامة تظاهرات الكتاب هو الرغبة في الإضافة وحس الابتكار كي لا تكون مجرد سوق تقليدية

ويبقى السؤال المطروح بعد هذا التعافي النسبي: ما الجديد الذي يمكن تقديمه على مستوى التنويع والابتكار في المقترح والمعروض، والمجالات التي ينبغي أن تنفتح عليها هذه المعارض بدل أن تنغلق على صيغها التقليدية كمجرد أروقة لعرض المنشورات إلى جانب بعض ما يتعلق بها مباشرة كتوقيع الكتب وإلقاء المحاضرات على هامشها؟

العلاقة المعقّدة بالكتاب

المعارض العربية للكتاب بدأت تتفطن إلى أمر آخر غير الكتاب كـ"بضاعة معروضة" بنسختيها الورقية والإلكترونية، وهو تلك النشاطات والتظاهرات المرافقة والموازية للمعرض.

هذا الانفتاح على كل ما يتعلق بالكتاب كوسيلة اتصال معرفي من قريب أو من بعيد، من شأنه أن يجعل من هذه المعارض الدورية "ذريعة" لفتح آفاق نحو التواصل البشري بمفهومها الشمولي.

ولو عدنا إلى أقدم التظاهرات الثقافية التي عرفتها المنطقة العربية كسوقي عكاظ والمربد، لوجدنا أن قراءة القصائد الشعرية لم تكن إلا واحدة من نشاطات كثيرة صلب تلك التجمعات التي تحتفي بحرارة اللقاء والتواصل الإنساني.

كانت تقام إلى جانب خيام الشعر والنقد وبيع مخطوطات الكتب، منصات للتجارة بشتى أشكالها وأخرى لإبرام الاتفاقيات والمعاهدات، وكذلك لإحياء العروض والحفلات التي تعرّف بالموروث الثقافي والغنائي لكل قبيلة.

إن مجرد النظر في هذا التنوع الاحتفالي الذي كان قائما في التراث العربي القديم كفيل بجعله منطلقا نحو تطوير صيغ التظاهرات الثقافية كمعارض الكتب في عصرنا الحالي، هذا بالإضافة طبعا، إلى الاستئناس للتجارب الأوروبية والأميركية في هذا المجال.

أول ما يمكن تسجيله في معارض الكتاب هو التسليم بجدوى وحتمية المنصات الإلكترونية في البيع والشراء والتسويق والقراءة والمتابعة قبل الجائحة، أثناءها وبعدها أي أن الأمر صار من البديهيات، ولكن هل يمكن لها أن تعوض دفء الحضور الفيزيائي، وتستغني حتى عن حفلات التوقيع بالأقلام لتأخذ التوقيعات الإلكترونية محلها؟

تبين، وبما لا يدعو للشك، أن احتفاليات الكتاب لا تعوضها البدائل الافتراضية على المنصات الإلكترونية التي نجحت - إلى حد ما - في تعويض الحفلات الموسيقية والغنائية، ذلك أن معرض الكتاب أكبر وأوسع وأعمق من مجرد عرض كتاب.

الأمر أشبه بـ"محج" تشترك فيه كل الحواس، ولا تغني عنه المتابعة الإلكترونية، لأن الكتاب - وما أدراك ما الكتاب - يمثل المنبع والوسيلة والمنطلق والغاية أي أن ما يتعلق به من نشاطات يكاد لا يحصى ولا يعد، فهو ليس صوتا غنائيا أو فيلما سينمائيا نحضره من خلف الشاشة، لذلك كانت ولا تزال العلاقة به شديدة التعقيد.

الخصوصية الثقافية

الحضور الجسدي بالنسبة إلى العارضين والمشاركين والمقتنين والمحاضرين والموقعين على كتبهم أمر لا يمكن الاستغناء عنه في معارض الكتاب، وهو ما يعطي لكل تظاهرة حجمها وخصوصيتها. وإلا كانت استوت وتشابهت المعارض دون تميز، فمعرض الشارقة الدولي للكتاب، مثلا، والذي أقيم هذا العام تحت شعار "هنا.. لك دائما الكتاب الصحيح"، يعد أكبر معرض في العالم هذا العام، حيث ضم 546 ناشرا ووكيلا أدبيا من 83 دولة وكان التواصل والتعارف والتفاعل مع بعضهم البعض لا يمكن تعويضه ببديل إلكتروني، وهو الذي يمثل انطلاقا جديدا لدور قطاعي النشر الإماراتي والعربي في النمو المستقبلي لصناعة النشر العالمية.

كما تتأتى أهمية الحضور الفعلي للمهرجان بأجوائه الاحتفالية كونه يستضيف كل عام دولة في تقليد أخذت به بقية المعارض في العالم كما كانت الشارقة ضيف شرف على كبرى معارض الكتب العالميّة، بدءا من باريس، مرورا بموسكو ومدريد ونيودلهي، وصولا إلى ساوباولو، بالإضافة إلى أنه يأتي بعد أن سجل المعرض تاريخ أكبر فعالية دولية ناجحة تقام في ظروف الجائحة العام الماضي.

وما يثير الفضول للحضور لحما ودما وشعورا لهذا المعرض بالإضافة إلى كثرة تعدد عناوينه وندواته، هو كتب ومخطوطات قديمة ونادرة بعضها مترجم إلى العربية، تحتضنها منصة نمساوية متخصصة في اقتناء الوثائق والمخطوطات التاريخية من أهم المزادات العالمية، حيث يصل سعر الكتاب الواحد إلى 4.5 مليون درهم إماراتي، ويعود تاريخها إلى القرن السابع عشر، وتمثل كنزا ثقافيا وتاريخيا ثمينا، تبلغ قيمتها الإجمالية نحو 8 ملايين يورو.

هذا الصيت المالي والبعد المتحفي والتاريخي للمعرض الذي يشبه ويذكر بامتداد لسوق عكاظ عملاق، قد لا يتوفر لدى نظيره في تونس مثلا، لكن الأخير الذي تأجل أكثر من مرة بسبب الجائحة، سجل في دورته الحالية التي حملت شعار "وخير جليس في الأنام كتاب"، حضورا لإصدارات تونسية جديدة ذات مستويات متميزة، وتكريما للكتاب الفائزين بجوائز المعرض في شتى المجالات. وجاء ذلك تزامنا مع الذكرى 60 لتأسيس وزارة الثقافة على يد الراحل الشاذلي القليبي.

قد لا يمكن لهذا المعرض منافسة الشارقة من حيث ضخامة الإمكانيات، لكنه يطمح لعلاقة تكاملية وتعاونية معها، خصوصا أنه يركّز على الخصوصية الثقافية لتونس وانفتاحها على معارف كونية تثبت من خلالها حضورها كمحطة ثقافية فاعلة على الصعيدين العربي والمتوسطي.

النشاطات الفنية المرافقة لهذا المعرض في دورته السادسة والثلاثين والتي تستمر إلى الحادي والعشرين من نوفمبر الجاري، تتميز بالفرادة والطرافة والابتكار من خلال عدم الجنوح إلى التقليدي والمكرر، حتى في الجدال القائم عن جدوى مثل هذه المعارض في العصر الإلكتروني، حتى أن أحد منتقديه قد استدرك في آخر مدونته "ولكن.. بفضل الكتاب الورقي تعلمت الحروف التي تبحر بي نحو الكتاب الإلكتروني".

بات واضحا أن الأهم من الوفاء لإقامة تظاهرات الكتاب هو الرغبة في الإضافة وحس الابتكار كي لا يكون الأمر أشبه بإقامة سوق تقليدية بمحاذاة "مولات" حديثة وبأبسط التكاليف، لا لشيء وإنما على سبيل الحنين والإخلاص للتقاليد.

الكتاب هو كناية عن المعرفة والشغف بها الذي لن يضمحل عبر التاريخ، لذلك وجب تطوير أساليب الاحتفاء بالمعرفة.

معرض تونس ليس فقط سوقا لبيع الكتب

«تائهة في زمن النسيان» حكاية امرأة يأسرها الماضي

عمان - تدور أحداث رواية "تائهة في زمن النسيان" للكاتبة رولا الأدهمي، حول تقلبات الحياة التي تواجهها فتاة جامعية بسبب معاناتها من التعلق المرضي بحيها الذي تسكنه، وبطفولتها فيه.

تتخذ البطلة قرارا بأن تغادر مجتمعها الصغير، وتخوض رحلة غامضة يتخللها الحنين والخوف من المجهول، فتقودها إلى الدفء الأبوي الذي تجده عند رجل في مرحلة متقدمة من العمر، فيحتضن شتاتها، ويعيد لها الأمان دون مقابل أو رغبة في استغلالها. ورغم ذلك تبقى عالقة في شباك التعلق، ولا تستطيع النسيان بسهولة، وتعود في النهاية إلى أحضان الأمان الذي تاهت عنه حين قررت أن تهجر حياتها الأولى.

وجعلت المؤلفة الإهداء عتبة تقود إلى مناخات العمل، فقدمته إلى من وصفتها بأنها "تسكن بين أسوار الماضي، تحرم نفسها من استنشاق نسيم الحاضر، حاملة مجلدات من ذكريات عتقت في تلافيف عقلها وأبت أن تسقط كورقة خريف، وشوهت مستقبلا من المفترض أن يكون مبهجا لتلك الشابة ذات السن اليافع".

وتبدو الصبغة الرومانسية واضحة في جميع مراحل العمل، فالحب صادق ونقي، ولا مكان فيه لغير المشاعر البريئة، لكن تقابله على الوجه الآخر الرغبات الشريرة والمكائد التي تجعل حياة البطلة غاية في الصعوبة، خصوصا أنها تعاني من التعلق، بل إن الصعوبات تهدد حياتها حتى إنها تكاد تقتل على يد صديقتها المقربة لولا أنها اتخذت قرار الرحيل في اللحظة الحاسمة.

تقول بطلة الرواية واصفة نفسها للقارئ في مستهل الرواية "لم أشعر بنفسي متى اقتحمت سن المراهقة، فقد كنت أرى أنني أتأرجح تارة في ساحات الطفولة وتارة أحلق بأرجوحتي في سماء الشابات، أولئك اللواتي اتخذن من المرايا خليلات، الحاملات بين جوانبهن حقائب المساحيق والمجوهرات، المهتمات بمظهرهن كالأميرات، وروائحهن من الزهور معتصرات. أتساءل دوما، هل حقا ودعت الطفولة ببراءتها؟ أم أنني أتخبط بين انجذابي لجمال الأنوثة وتعلقي بعفوية الطفولة؟ ليس من المنصف ألا أجد مكانا في المنتصف، فما زالت أحلامي صغيرة، لا أستطيع إيقاظها من غفوتها لتلتحق بصفوف اليافعات".

> الرواية تحكي قصة شابة تغادر مجتمعها الصغير وتخوض رحلة غامضة يتخللها الحنين والخوف من المجهول

ورغم المكائد والافتراق، يعود البطل في آخر الرواية ليقدم للبطلة الخلاص من التعلق، ويبدي رغبته في الاقتران بها، ما يؤكد رومانسية الرواية ونهايتها التي تنتصر للحب والجمال.

فتاة بين أسوار الماضي (لوحة للفنان محمد خياطة)

«سورية يا حبيبتي» قصص تحول المآسي إلى أساطير

ميلانو (إيطاليا) - تتقاطع في نصوص المجموعة القصصية "سورية يا حبيبتي" للكاتب السوري زياد عبدالله حيوات صغيرة بشكل قاس مع مأساة وطن بأكمله، ويبني عبدالله قصصه عبر نسيج كثيف من المشاهد والشخصيات والأحداث، لحياة أراد أن يجعل من كل تفصيل ثانوي فيها مترامي متاجحا بين الذكريات والمرثيات والأمل أو شيئا منه.

يتخذ الكاتب من أبطال قصصه، حجة ليمنع الأشياء المتداعية من التلاشي، وقد أمسى كل شيء مدمرا وآيلا للزوال، ليطالعنا القرف بوصفه دافعا إنسانيا أصيلا، حسب قناعة "صانع قناديل البحر المزيفة". أو تلك الرائحة التي لا تفارق الجدة، بل تمضي وراءها وقد تحولت شوارع ألمانيا تحت قدميها إلى شوارع حلب.

هناك دمار فادح تصوره القصص التي تجول بين عوالم الواقع والخيال، لتكشف عن الأذى الذي لحق حتى بأغاني المذياع الصباحية والأزهار في الشرفات. وليتحول سؤال "هل كنت تطبخين لوبياء بالزيت في تمام الخامسة فجرا؟" إلى سؤال وجودي، ولنا أن نلتقي في الأرجاء بـ"قط شبه له أنه نمر"، ثم ليأتي ليل وبعده ليل آخر، لا نهار بينهما، وعتمة تلو عتمة، وذكريات معسكرات، واعتقالات وفظاعات، ودوافع أصيلة للانتحار في أمكنة متفرقة، لا يجمعها سوى البعد عن الوطن، أو الضياع فيه، قبل أن يداهمنا الحزن شفيفا وحقيقيا عبر مفاصل كل قصة بنهايتها التراجيدية.

قراءة قصة واحدة من مجموعة "سورية يا حبيبتي"، ترسخ لدى القارئ فعل التماهي مع شخصيات أبطاله. فهي شخصيات هشة في حالة الحب، عنيفة في حالة الغضب، لكنها تائهة بين الحالتين. إذ يمتلك الكاتب تلك القدرة على توظيف الكلمة الواحدة في مكانها، متلبسا بأصوات أبطاله، محولا كل صراعات الحرب وماسيها إلى أساطير سورية يومية تستحق الكتابة، بينما الفقد متواصل والقسوة ماثلة والدم حقيقي، لكنه يرمينا بدفقات أمل متتالية، مقابل ما نتلقاه من لكمات لا ترحم.

> قصص محكمة في بنائها بينما يتبدّى فيها اللامعقول منطقيا والعكس صحيح في عالم ما يفتأ ينهار من حولنا

يمكننا الإقرار بأن قصص المجموعة، الصادرة أخيرا عن منشورات المتوسط -إيطاليا، محكمة في بنائها بينما يتبدى فيها اللامعقول منطقيا، وبشكل سريالي العكس صحيح، في عالم ما يفتأ ينهار من حولنا، عالم نعتقد أننا نعرفه لكننا ما نبرح نتعرف عليه من جديد. وعبدالله هنا نجده واقعيا ساخرا، يرمي بنا في عاصفة قصص تتآمر علينا، كما لو أننا في فيلم ملحمي ندرك مسبقا أن نهايته تراجيدية لا ريب.